المبحث الأول

بدايات ظهور الحكمة

المطلب الأول: تعلُّم الحكمة (الحكمة مكتسبة)

الحكمة عند الشيخ ابن عاشور مكتسبة، يُحَصِّلها الإنسان بالتلقي عن مُعَلِّم، يؤكده قوله: «وأما الحكمة فهي تعليم لمتطلبي الكمال من معلّم يهتمّ بتعليم طلابه»[(١)].

وهي بذلك تكون بخلاف النبوة التي هي وهب واصطفاء، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال تعالى في حق الأنبياء والمرسلين -صلوات الله تعالى عليهم-: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ [ص: ٤٧].

ولعله أراد بذلك غلق الباب أمام أولئك الذين يريدون التسوية بينهما، فضلا عن ادعاء المقارنة بينهما وتفضيل الحكمة عليها، فقد زلت قدم من زعم ذلك، ولذا فالرجل كان صريحا في تلك القضية، صحيحٌ أنه يجعل النبيَّ والرسولَ كلاهما حاملا أمانة الوحي والتشريع، مع استعداده أولا وامتلاكه ناصية الحكمة، وبذلك تكون الحكمة أولى درجات النبوة، وأعلاها نبوة التشريع، يظهر ذلك جليا في أقواله ومنها قوله: «الحكمة أطلقت على النبوءة في كثير من القرآن كقوله في داود: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص: ٢٠]... وأن الحكمة معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه، وأعلاها النبوءة؛ لأنها علم بالحقائق مأمون من أن يكون مخالفاً لما هي عليه في نفس الأمر؛ إذ النبوءة متلقاة من الله الذي لا يعزب عن عمله شيء».[(٢)] وقوله: «وتطلق الحكمة على العلوم الحاصلة للأنبياء».[(٣)] يستدل من خلاله على أن الأنبياء - صلوات الله تعالى عليهم - لديهم علمان: أحدهما شرعي طريقه الوحي. والآخر علم الحكمة المنضبط بالعلم الشرعي، وعليه يصح القول بأن كل نبي حكيم، وليس كل حكيم نبيا.

وقد حشد الشيخ من الأدلة النقلية على بيان كون الحكمة مكتسبة من جانب، وعلى فضل

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤/ ص٣٢٩.
(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢١/ ص١٤٩.
(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٤/ ص٣٢٧.

النبي ونبوته على الحكيم وحكمته من جانب آخر، ومن تلك الأدلة ما ورد في قصة سليمان في شأن عرش بلقيس، والمناظرة التي دارت بين سليمان من جهة، وبين العفريت والذي عنده علم من الكتاب من جهة أخرى، وأنها - حسب قوله -: «ترمز إلى أنه يتأتى بالحكمة والعلم ما لا يتأتى بالقوة، وأن الحكمة مكتسبة لقوله: ﴿عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النمل: ٤٠]، وأن قوة العناصر طبيعة فيها، وأن الاكتساب بالعلم طريق لاستخدام القوى التي لا تستطيع استخدام بعضها بعضاً. فذكر في هذه القصة مثلاً لتغلب العلم على القوة. ولما كان هذان الرجلان مسخرَيْن لسليمان كان ما اختصا به من المعرفة مزية لهما ترجع إلى فضل سليمان وكرامته أن سخر الله له مثل هذه القوى. ومقام نبوته يترفع عن أن يباشر بنفسه الإتيان بعرش بلقيس».[١]

لكن على الرغم من كون الحكمة مكتسبة، إلا أنها تفتقر قبل ذلك إلى مشيئة الله تعالى وتوفيقه، فيجتمع لصاحبها - عند الطاهر بن عاشور - مع ذلك استعداد خاص «من سلامة عقله واعتدال قواه، حتى يكون قابلاً لفهم الحقائق منقاداً إلى الحق إذا لاح له، لا يصدّه عن ذلك هوى ولا عصبية ولا مكابرة ولا أنفة، ثم ييسّر له أسباب ذلك من حضور الدعاة وسلامة البقعة من العُتاة، فإذا انضمّ إلى ذلك توجّهه إلى الله بأن يزيد أسبابه تيسيراً ويمنع عنه ما يحجب الفهم فقد كمل له التيسير».[٢]

المطلب الثاني: بدايات ظهور الحكمة

يتفق ابن عاشور مع جمهرة من العلماء قديما وحديثا على ربط نشأة علوم الحكمة ببلدان الشرق القديم، فهناك من رأى أن نشأتها في الشرق كان أمرا طبيعيا؛ ذلك أن الحضارة تركزت في الشام وفارس، ومنها انتقلت إلى بلاد اليونان، الذين لا يُنسى فضلهم - على حد قوله - في تهذيبها وتصحيحها وتفريعها وتقسيمها إلى حكمة نظرية وعملية، فنراه يقول: «ومبدأ ظهور علم الحكمة في الشرق عند الهنود البراهمة والبوذيين، وعند أهل الصين البوذيين، وفي بلاد فارس في حكمة زرادشت، وعند القبط في حكمة الكهنة. ثم انتقلت حكمة هؤلاء الأمم الشرقية إلى اليونان وهُذّبت وصحّحت وفرّعت».[٣]

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١٩/ ص٢٧١.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣/ ص٦١.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣/ ص٦١، ٦٤.

وبذلك يكون حكمه متصفا بالموضوعية، فإذا كان يرد مبدأ ظهور الحكمة إلى حضارات الشرق القديم، نراه مع ذلك يحفظ لأمة اليونان فضلهم وجهدهم في تهذيبها وتصحيحها بعد أن كانت مخلوطة بالأوهام والتخيّلات والضلالات بين الكلدانيين والمصريين والهنود والصين.

ولكنه مع ذلك يرجع بأصلها إلى الوحي الإلهي الذي أرسل به النبيون لأقوامهم، ومنه كان صلاح عقول وأخلاق البشر، وعليه يكون قد ربط بين علوم الحكمة والأديان، وقوله هذا يؤيد ما ذهب إليه كثير من الفلاسفة إلى محاولة التوفيق بين الدين والفلسفة، من أمثال: الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد؛ فيقول في ذلك: «وعلوم الحكمة هي مجموع ما أرشد إليه هدي الهداة من أهل الوحي الإلهي الذي هو أصل إصلاح عقول البشر، فكان مبدأ ظهور الحكمة في الأديان، ثم ألحق بها ما أنتجه ذكاء أهل العقول من أنظارهم المتفرّعة على أصول الهدى الأول».[١]

ويقول كذلك: «وانحصرت هذه العلوم في طريقتي سقراط وهي نفسية، وفيثاغورس وهي رياضية عقلية. والأولى يونانية والثانية لإيطاليا اليونانية. وعنهما أخذ أفلاطون، واشتهر أصحابه بالإشراقيين، ثم أخذ عنه أفضل تلامذته وهو أرسطاليس وهذّب طريقته ووسّع العلوم، وسُمّيت أتباعه بالمشّائين، ولم تزل الحكمة من وقت ظهوره معوّلة على أصوله إلى يومنا هذا»[٢].

المطلب الثالث: تصنيف علوم الفلسفة

يحذو الشيخ ابن عاشور حذو أرسطو وشراحه من الإسكندرانيين، فضلا عن فلاسفة الإسلام من أمثال ابن سينا[٣]؛ في تصنيف علوم الفلسفة؛ إذ يقسمها - كما هي عندهم - إلى قسمين: فلسفة عملية غايتها الخير، وفلسفة نظرية غايتها الحق. يظهر ذلك جليا في إشارة منه إلى رعاية المأمون لحركة الترجمة، التي عنيت بنقل التراث اليوناني إلى اللسان العربي عبر اللسان السرياني، قائلا: «فأوسع المأمون خطاه في طلب العلوم الرياضية وترجمتها والفلسفة العملية

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣/ ص٦٣، ٦٤.
(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣/ ص٦٤.
(٣) انظر: ابن سينا، رسالة في أقسام العلوم العقلية(تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات)، ص١٠٨: ١٠٥.

والنظرية»[1]، وبذلك يظهر كون لفظ الحكمة والفلسفة لديه مترادفتين كما هو الحال عند ابن سينا، وقد سبقت الإشارة إليه.

وهو إذ يقسم علوم الفلسفة إلى قسمين كبيرين: أحدهما عملي والآخر نظري، فإنه يندرج تحت كل واحد منهما علوم فرعية، فالفلسفة العملية يندرج تحتها ثلاثة علوم هي: الأخلاق، وعلم تدبير المنزل، والسياسة. أما علوم الفلسفة النظرية فهي ثلاثة علوم: أسفل وهو العلم الطبيعي، وأوسط وهو العلم الرياضي، وأعلى وهو العلم الإلهي. وبيان ذلك التقسيم على النحو التالي:

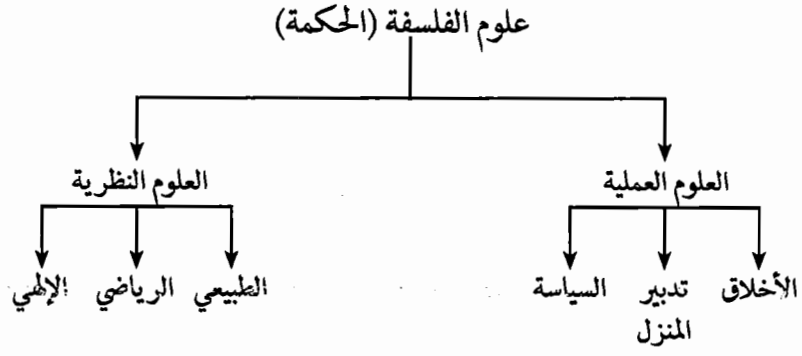

يؤكد ذلك الشيخ في قوله: «فأما الحكمة العملية فهي المتعلّقة بما يصدر من أعمال الناس، وهي تنحصر في تهذيب النفس، وتهذيب العائلة، وتهذيب الأمة. والأول علم الأخلاق، وهو التخلّق بصفات العلوّ الإلهيّ بحسب الطاقة البشرية، فيما يصدر عنه كمال في الإنسان. والثاني علم تدبير المنزل. والثالث علم السياسة المدنية والشرعية.

وأما الحكمَة النظرية فهي الباحثة عن الأمور التي تعلّم وليست من الأعمال، وإنّما تعلم لتمام استقامة الأفهام والأعمال، وهي ثلاثة علوم: علم يلقّب بالأسفل وهو الطبيعيّ، وعلم يلقّب بالأوسط وهو الرياضيّ، وعلم يلقّب بالأعلى وهو الإلهيّ. فالطبيعيّ يبحث عن الأمور العامة للتكوين والخواصّ والكون والفساد...والرياضيّ الحساب والهندسة والهيأة والموسيقى، ويندرج تحته الجبر والمساحة والحيل المتحركة (الماكينية) وجرّ الأثقال. وأما الإلهيّ فهو خمسة أقسام: معاني الموجودات، وأصول ومبادئ وهي المنطق ومناقضة الآراء الفاسدة، وإثبات

(١) ابن عاشور، أليس الصبح بقريب، ص٣٤، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣/ ص٦١.

واجب الوجود وصفاتِه، و إثبات الأرواح والمجرّدات، و إثبات الوحي والرسالة، وقد بَيّن ذلك أبو نصر الفارابي وأبو علي ابن سينا».[١]

والشيخ إذ يقسم علوم الفلسفة هذا التقسيم، يدرك جيدا وجود علوم نقلية مصدرها الوحي، لا يمكن تجاهلها، بل يراها مفضلة على غيرها، ولعله في ذلك يتفق مع نهج الخوارزمي في كتابه: «مفاتيح العلوم»؛ إذ يفصل علوم الدين عن العلوم البحتة والفلسفية، التي يسميها علوم العجم[٢]، وكذلك فعل كل من الفيلسوف الفارابي في كتابه: «إحصاء العلوم»[٣]، وابن خلدون في كتابه: «المقدمة» فقسَّم العلوم قسمين كبيرين: عقلية وهي علوم الحكمة والفلسفة، وعلوم نقلية أو شرعية أو دينية.[٤]

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج٣/ ص٦٢.

(٢) انظر: الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ١٥٥: ١٥٣، تحقيق/ إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢/ ١٩٨٩م.

(٣) انظر: الفارابي، إحصاء العلوم، ص٧٥، ص٧٩، تحقيق.د/ علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١/ ١٩٩٦م.

(٤) انظر بتصرف: ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج٢/ ص٢٤٨، تحقيق/ عبد الله محمد الدرويش، دار البلخي، دمشق، ط١/ ٢٠٠٤م.